

Relativity of the Vantage Point in the Quranic Discourse : The Sphericity of the Earth and its Rotation as a Case Study

Fayiz Althunibat

Department of Arabic and Islamic Studies, College of Humanities and Sciences,
Ajman University, United Arab Emirates

Abstract

This study aims to answer pivotal questions, the most important of which are: Did the Qur'an allude to the idea of the Earth's sphericity or rotation? Why did it ignore to declare this publicly? This study also deals with a sensitive topic that is to rely on evidence from the Noble Qur'an to deny or prove the Earth's rotation and sphericity. The study has discussed from an analytical- rhetorical point of view the evidence offered by those who claim that the earth is flat and stable, through a contextual tool that we proposed to label as the relativity of the vantage point. Previous conceptions that reflect understanding the noble Qur'anic verses without paying attention to the subtleties of the context have been investigated. The study has also examined the methods of the Noble Qur'an in making scientific references whose reality contradicts human convictions based on perceptual cognition. The study has concluded that the Holy Qur'an uses one of two methods: the first is scientific sophistication and the second is contextual integration. Both methods have been deduced and inferred in this context. As for the research method used in the study, it is not a specific and self-contained method; rather, it is a general discourse analysis and we can call it a descriptive analytical inferential analysis. The researcher has reached an important number of conclusions, including that the flattening of the earth is a concept attributed to the Qur'an with a wrong understanding, as the Qur'an alluded more than once to the sphericity of the earth, and as the Qur'an avoided declaring the earth's rotation and sphericity out of politeness; the cosmic verses in the Qur'an depended on the concept of contextual integration.

Keywords: vantage point; the sphericity of the earth in the Holy Qur'an; evidence on flatness of the earth in the Holy Qur'an; expressive relativity in the Holy Qur'an.

ISSN: 1026-9576

DOI : 10.34120/0117-041-161-002

To cite this article / الإشارة المرجعية للبحث

الذنيات، فايز: "نسبية زاوية الرؤية في الخطاب القرآني الكريم: كروية الأرض ودورانها نموذجاً- دراسة تحليلية"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت: العدد 161، 2023، 45- 70 .
Al-dhniyat, Faiz: "nshbiwī zāwiyī al-ru'ī fi al-ḥtāb al-qr'ānī al-krim – krwywī al-arḍ ūdūrānhā nmūdgā.- drāsī thlīlī", Arab Journal for the Humanities:161, 2023, 45 -70 .

نسبية زاوية الرؤية في الخطاب القرآني الكريم: كروية الأرض ودورانها نموذجاً - دراسة تحليلية

فايز مد الله سلمان الذنيبات

أستاذ، قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، كلية
الإنسانيات والعلوم، جامعة عجمان، الإمارات العربية المتحدة

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى الإجابة عن أسئلة محورية، أهمها: هل ألمح القرآن الكريم إلى فكرة كروية الأرض أو دورانها؟ ولماذا تجاهل التصريح العلني بذلك؟، وتعالج الدراسة موضوعاً حساساً هو: الاعتماد على أدلة من القرآن الكريم لنفي دوران الأرض وكرويتها أو إثباتها، وقد ناقشت - من زاوية بلاغية تحليلية - أدلة القائلين بتسطح الأرض وثباتها من خلال أداة سياقية اقترحنا أن نسميها (نسبية زاوية الرؤية)، وعلجت خلالها الأحكام المسبقة التي أسقطت على فهم الآيات القرآنية الكريمة دون عناية بدقائق السياق. ووقفت الدراسة على أساليب القرآن الكريم في تمرير الإشارة العلمية التي تناقض حقيقتها قناعات الإنسان القائمة على الإدراك الحسي، وانتهت إلى أن القرآن الكريم استعمل أحد أسلوبيين: الأول (الترقي المعرفي)، والثاني: (الدمج السياقي). وكلا الأسلوبين جاء من مقترحنا واستنباطنا.

أما منهج الدراسة؛ فهو ليس منهجاً محدداً قائماً بذاته؛ بل هو تحليل خطاب عام، يمكن أن نسميه وصفاً استدلالياً تحليلياً. وقد توصل الباحث إلى عدد مهم من النتائج، منها: أن مفهوم تسطيح الأرض مفهوم منسوب إلى القرآن بفهم خاطئ، وأن القرآن ألمح غير مرة إلى كروية الأرض وأن القرآن تجنب التصريح بدوران الأرض وكرويتها كنوع من التلطف، وأن الآيات الكونية في القرآن اعتمدت على مفهوم (الدمج السياقي).

الكلمات المفتاحية: زاوية الرؤية، كروية الأرض في القرآن الكريم، أدلة تسطيح الأرض في القرآن الكريم، النسبية التعبيرية في القرآن الكريم.

To cite this article / الإشارة المرجعية للبحث

- الذنيبات، فايز: "نسبية زاوية الرؤية في الخطاب القرآني الكريم: كروية الأرض ودورانها نموذجاً - دراسة تحليلية"، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت: العدد 161، 2023، 45 - 70. - Al-dhniyat, Faiz: "nsbiwī zāwīy al-ru'ī fi al-ḥtāb al-qur'ānī al-krīm - krwīyī al-arḍ udūrānhā nmūdgā,- drāsī thlīlī", Arab Journal for the Humanities:161, 2023, 45 - 70.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي كلفنا بالتفكير في آيات الكون المعمور وآيات الكتاب المسطور، جلّت عظّمته وتقدّست أسماؤه، جل من قائل: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (النمل: 93)، وسلاماً على عباده الذين اصطفى.

إن معرفة زاوية الرؤية النسبية في القرآن الكريم يحل لنا كثيراً من إشكاليات الفهم لآيات القرآن الكريم الكريم؛ فالقرآن الكريم يمكن أن يحمل مستويات متعددة من التأويل تبعاً للأدوات المعرفية المتوافرة، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الفهم القديم للآيات الكونية كان يعتمد على المشاهدة البصرية المباشرة، ثم مقارنتها بالإشارة العلمية لها في القرآن الكريم، وقد قدّر الخطاب القرآني تعدّد وسائل المعرفة في زمن التنزيل، لذلك حافظ على نسبة إدراك المنظر المرئي المشاهد حتى لا يكون الذي يراه الإنسان وقتها منافياً لحقيقته، وهذه النقطة الحساسة جعلت الخطاب القرآني الكريم -أحياناً- يلجأ إلى تمرير الإشارة العلمية عبر أساليب فريدة. ومن هنا تسعى الدراسة إلى تسليط الضوء على هذه الأساليب وإظهار الغاية من استعمالها.

1- سبب الدراسة: أما سبب اختيار هذا الموضوع؛ فهو عودة اللغظ والجدال حول فكرة كروية الأرض ودورانها، وفكرة سطحية الأرض وثباتها، وقد بدأ هذا في أمريكا وأوروبا، كما هو الحال مثلاً بـ«جمعية الأرض المسطحة» البريطانية، التي تمتلك موقعاً رسمياً على الإنترنت يحتوي على مقالات ومجلات عدة. وعند المسلمين في الزمن الحديث ظهرت أصوات تعتمد على أدلة ضعيفة من القرآن الكريم تدّعي فيها أن الأرض مسطحة⁽¹⁾. ولأن الأدلة القرآنية الكريمة تم التعامل معها بطريقة القطع من السياق، وعدم مراعاة زاوية الخطاب فقد وجب بسط الموضوع وتفنيد السياقات القرآنية الكريمة الحاملة للأدلة.

2- هدف الدراسة: بيان عدم تعارض الأدلة من خلال معرفة نسبية زاوية الخطاب القرآني الكريم التي تحل إشكالات عديدة.

3- منهج الدراسة: تعتمد الدراسة على غير واحد من مناهج البحث؛ فهي تأخذ بالمنهج الاستقرائي التحليلي الذي ينحو بشكل ثانوي نحو بعض مناهج تحليل الخطاب.

4- أسئلة الدراسة:

أ- لماذا لم يتحدّث القرآن الكريم بكل صراحة عن دوران الأرض واستعاض عنها بالإشارة وبالتلميح؟

ب- ما الأساليب القرآنية الكريمة المتبعة في طرح الحقيقة العلمية التي تخالف ما يراه الإنسان؟

ج- ما أهمية زاوية الرؤية النسبية؟ وما دورها في توجيه الدلالة؟

5- خطة الدراسة: تناول الفصل الأول من الدراسة مفهوم النسبية وعلاقتها بالحقول المعرفية، وبيّن الفارق بينها وبين زاوية الرؤية النسبية، وتناول الفصل الثاني أهم الأساليب القرآنية الكريمة في طرح الحقائق العلمية المشاهدة، وهذه الأساليب لم يطرقها أحد -في حدود اطلاع الباحث - ثم جاء الفصل الأخير ليناقد الأدلة التي زعم أصحابها أنها تؤكد ثبات الأرض وسطحيّتها.

6- نتائج الدراسة: تطرقت الدراسة عبر صفحاتها إلى العديد من النتائج، منها -على سبيل المثال-: إزالة الغشاوة عن بعض التصورات التي تنظر للأدلة القرآنية نظرةً مجتزأةً لتقوي بها مزاعمها، واستنباط أساليب استعمالها القرآن في تمرير الإشارة العلمية، حتى لا تسبب الصدمة للجيل الأول.

7- مراجع الدراسة: لن تعتمد الدراسة على المراجع الكثير بسبب طبيعتها التحليلية، وعلى الرغم من ذلك كان القرآن الكريم مصدراً أولياً لها. كما لجأت إلى بعض كتب تفسير القرآن الكريم وبعض المعاجم أيضاً.

تمهيد عن مفهوم النسبية التعبيرية

1 - توطئة

توجد في القرآن الكريم العديد من الإشارات العلمية الدقيقة التي تتفق مع أحدث الأبحاث العلمية في العصر الحديث، غير أن هذه الإشارات لو وردت صراحةً وبكل وضوح لاستنكرها القدماء كثيراً؛ ذلك أنهم سيصطدمون بحقائق نظرية تخالف الحقائق المحسوسة في زمنهم؛ فلو فاجأهم القرآن الكريم قبل 14 قرناً بحقيقة: أن الأرض تدور، لاستنكروا ذلك؛ لأنهم بكل بساطة يرون أنها ثابتة ولا تدور وفقاً لزاوية نظرهم، ولا سبيل إلى إقناعهم بحقيقة مادية وهم يشعرون بنقيضها. ومن هنا نجد أن أسلوب القرآن الكريم يميل إلى أن تكون المعلومة قابلةً للتفسير وفق زاوية رؤية مختلفة. فيبدو - من النظرة غير الفاحصة - أن الأدلة القرآنية الكريمة تحتمل أن تكون الأرض كرويةً وتدور، كما تحتمل أن تكون الأرض مسطحةً ولا تدور. ولكن النقطة الدقيقة في الموضوع تكمن في: أن الأدلة التي تحتمل كون الأرض مسطحةً جاءت لنا عبر زاوية رؤية بشرية؛ إذ تجد الخطاب القرآن الكريم يقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ (الغاشية: 17-20). إذ فهم الناس أن هذا دليل حاسم على كونها مسطحةً. ولم ينتبهوا إلى أن الآية تقول: (أفلا ينظرون) وأن هذا لا ينفي كونها كروية، فهل يستطيع الإنسان بنظره المحدود أن يدرك حقيقة كروية الأرض أو سطحيتها؟ فكل جسم كروي له سطح، وكلما تضخم حجم الكرة بدا السطح للناظرين كما لو كان غير كروي، وأنه ممتد إلى ما لا نهاية. ودقة الخطاب تكمن في استعمال زاوية رؤية المتلقي (أفلا ينظرون)؛ أي أنها من زاوية المتلقي تظهر أنها سطح ممتد.

وثمة تهمة طالما يرددها منكرو الإعجاز العلمي في القرآن الكريم مفادها: لماذا نتنظر أبحاث الأمم الأخرى في مجال الطبيعيات ثم نعقب عليها بقولنا: إن القرآن الكريم قد نبه على هذا؟ والجواب عن هذا يكمن في أن القرآن الكريم يحمل في طياته إشارات علمية سريعة، تداخلت مع سياقات متعددة، والفائدة منها: تثبيت يقين المؤمنين بأن

الذي أنزل هذا الكتاب هو فوق الزمان، وليس محصوراً في القرن السادس الميلادي. ومن هنا يستحيل على القارئ أن يأخذ منها نظرية علمية مستقلة؛ ذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية يحمل في طياته إشاراتٍ سريعةً مختصرةً أخرى؛ إذ يمكن حمل الإشارة العلمية على أنها حدث من أحداث يوم القيامة مثلاً، أو أنها وصف عابر مكرر جاء عبر مرادفات لغوية. وهذه مئة من الله وتلطف بعقول المؤمنين قبل عصر الانفجار المعرفي. فدوران الأرض عُرف حديثاً ولو طرح القرآن الكريم هذا صراحةً وهو مناقض لما يراه الناس ويحسون به من ثبات الأرض لبدا منهم نكير وعدم قناعة، فكان حرياً بالخطاب القرآني الكريم أن يكون مراعيًا لعقول المؤمنين به على امتداد مساحة الزمن حتى يوم القيامة. يُضاف إلى هذا أن من أسباب ورود الإشارات العلمية بشكل مختصر في القرآن الكريم -بحسب ما يراه الباحث-: التلطف بعقول الجيل الأول من المؤمنين الذين لم يسعفهم التقدم المعرفي في الوصول إلى الحقيقة أو التأكد منها. لذا نعتقد أنه لو وردت الحقائق العلمية؛ كدوران الأرض، صراحةً لربما دخل الشك في قلوب الجيل الأول، بل ربما لم يؤمنوا ولم يصلنا الدين، لذلك جعل الله لهم مخرجاً في التأويل يمكن من خلاله التوفيق بين الحقيقة النظرية في القرآن الكريم، ورؤيتهم الذاتية لتلك الحقيقة. يُضاف إلى هذا أن الخطاب القرآني الكريم قد جعل العهدة على الأزمنة اللاحقة في اكتشاف الحقائق الكونية، كما جاء صراحةً في قوله تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ﴾ (فصلت: 53) وفي قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَاتِهِ فَفَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (النمل: 93). وفي الآيتين نجد الخطاب خاصاً بالمستقبل: (سريهم) (سيريكم) والسين هنا هي: سين التسويف (سوف) وهي للمستقبل.

2 - تحرير مفهوم النسبية

من المعلوم أن مصطلح النسبية يذهب بتوقعات القارئ إلى أحد حقلين معرفيين: الأول الفيزياء والنظرية النسبية، وهذا بعيد جداً. والثاني: الفلسفة النسبية؛ نسبية الأخلاق وغيرها وهي بعيدة أيضاً. ومن هنا وجب التنبيه من أجل فك التداخل بين عدد من فروع المعرفة المختلفة وبين ما نحن بصدده. إن نسبية زاوية الرؤية في

الخطاب القرآني الكريم تعني بزاوية نقل الحقيقة؛ من حيث إذا كانت منقولة لنا من زاوية المتكلم - الله جل جلاله - أم المتلقي؟ فالحقيقة قد يكون لها صورتان: صورة موضوعية مجردة، وصورة تقريبية تم إنشاؤها وفقاً لزاوية رؤية المتلقي. ويمكن أن نقدم مثلاً على هذا: فالقمر كجرم سماوي لا يتغير حجمه ولا ينقص ولا يزيد، وهذه هي حقيقة الموضوعية. ولكنه فيما يظهر للناظر والمراقب له (المتلقي) يصغر ويكبر ويظهر ويختفي ويتكور ويتقوس. وهذه الحالات كانت بالنسبة للمتلقي القديم حقائق مجردة. وكان المتلقي القديم لا يعلم أين يذهب نصف القمر حين يبدو في الأفق ناقصاً، ولا يعلم الحكمة من ظهوره بهذه الأشكال المتغيرة وبغيابه أحياناً. ومن هنا رصد لنا القرآن تساؤلهم عن هذا، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوْفِيتٌ لِلنَّاسِ وَالْحَجُّ﴾ (البقرة: 189) وقد جاء الخطاب القرآني الكريم مراعيًا حالتي الحقيقة: الحقيقة الموضوعية كما هي، والحقيقة (النسبية) من زاوية نظر المتلقي مراعاةً لإدراكه المحدود ومعرفته الضئيلة، ومن هنا لم يرد في الخطاب القرآني الكريم أن القمر ينقص أو يتحوّل في حقيقته، وإنما من زاوية رؤيتنا كبشر على الأرض يظهر لنا أن القمر يمر في منازل (مراحل) ينتهي إلى أن يكون في أعيننا مثل العرجون⁽²⁾ القديم. (حتى عاد كالعرجون) من زاوية رؤيتنا له لا كحقيقته هو. فهو يبدو لنا كما لو أنه عرجون قديم متضائل وخافت. وهذا يغيّر حقيقته الموضوعية، وهي أنه لا يشبه العرجون في شيء، ولو نظرنا له من خارج نطاق الأرض لوجدناه كرة مستديرة، والعرجون القديم غصن نخل ذابل ومتقوس يشبه في شكله المتموج عودة القمر في منازل المختلفة. فالآية لم تقل حتى انتهى القمر إلى هلال متضائل يشبه العرجون، وإنما شبهت مسار عودته بالعرجون القديم.

ومن هنا فإن الخطاب القرآني الكريم قد يخبرنا بالحقيقة من زاويتين، الأولى: زاوية الحقيقة الموضوعية المجردة فيما لا تستطيع حواسنا أن تدركه، ولا يستطيع منطقتنا العقلية أن يلم به، كما هو الحال مثلاً في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَنَقَنَهُمَا﴾ (الأنبياء: 30) فإن الجواب أنهم لم يروا. والثانية: زاوية رؤيتنا نحن للحقائق التي يمكن أن ندرك شيئاً منها، فنحن نؤمن بما تدركه حواسنا وإن كان إدراكنا ناقصاً أو جزئياً أو خاطئاً.

الفصل الأول: طبيعة الأسلوب القرآني الكريم في تمرير الحقيقة العلمية

تجدد الإشارة إلى أن القرآن الكريم ليس كتاباً علمياً لكنه يحمل كثيراً من الإشارات العلمية، وفيما يخص طريقة القرآن الكريم في طرح الإشارة العلمية، فإن هذه الإشارة تمرّ عبر طريقة خاصة من التعبير؛ لأنها تراعي المستويات المعرفية لجمهور المتلقين عبر مراحل التاريخ. فالقرآن الكريم ينسجم مع المستوى المعرفي لكل حقبة زمنية؛ إذ يفهم المتلقي في العصر الأول ما يوافق السياق المعرفي لعصره، ولا يدخله في حيرة أو شك، في حين يظهر للقارئ في عصور التنوير المعرفي شيء آخر تحتمله الإمكانات الدلالية للتراكيب. ومن أمثلة هذه الطريقة في القرآن الكريم -وهو خارج عن موضوع كروية الأرض- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ (العنكبوت: 41). فإن الفهم القديم لبית العنكبوت هو خيوطها التي تنسجها، فهي خيوط ضعيفة، أما الفهم الحديث؛ فهو مبني على حقائق علمية تثبت أن الوهن أو الضعف في بيت العنكبوت هو وهن علاقات أسرية؛ إذ تآكل الأنثى الذكر بعد التزاوج، ثم يأكلها أبناءها بعد أن يظهرها، وأن وهن مسكنها ليس خاصاً بها، فأغلب الكائنات التي هي في حجمها تكون مساكنها واهيةً. وهنا نؤكد أن الأرضية المعرفية القديمة لا تسمح للناس بمعرفة حقيقة وهن بيت العنكبوت، لذلك كان سهلاً جداً على الخطاب القرآني الكريم أن يستعمل لفظ (بيت) كيلا يستنكر الناس هذه الحقيقة. يُضاف إلى هذا فتح المجال أمام الدراسات المستقبلية لتثبت أن القرآن الكريم فوق التصورات المجزوءة وفوق التاريخ. وتأسيساً على ما تقدم فإن الخطاب القرآني الكريم قد سلك أحد أسلوبيين في تمريره للإشارات العلمية، وهذان الأسلوبان هما:

أولاً: الخطاب القابل للترقي المعرفي

وهذا الأسلوب يقوم على إمكانية حمل الخطاب لمستويات متصاعدة من الإشارات العلمية وفقاً للترقي المعرفي؛ إذ يبرز مفهوم نسبية الإسقاط التاريخي على الدال القرآني الكريم. وهنا لا بد من أن نسجل مبدأً عاماً في التعبير القرآني الكريم قائماً

على التدرج، يمكن أن نسميه (الترقي المعرفي)، ويمكن أن نسوق من أمثلته قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهُمْ لَمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَسْحُونِ﴾ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ (يس 41-42)، فإن وجوهاً مختلفة يمكن أن يحملها المعنى في قوله ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ (٤٢) وقد ذهب القدماء من المفسرين قياساً على المراكب في زمنهم إلى: "مثل سفينة. وقال آخرون: بل عنى بذلك الإبل" (3). أما المحدثون من المفسرين؛ فقد ذهبوا قياساً على المراكب في زمننا إلى أن دلالة قوله تعالى: "(من مثله): من مثل هذه السفينة يحملون فيها، وكذلك ما يركبون من مثل ذلك". يقول الزحيلي: "وإن نشأ نغرقهم. ولو كان المراد الإبل، لكان قوله: وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ فاصلاً بين متصلين. ويحتمل أن يعود الضمير إلى معلوم غير مذكور تقديره: من مثل ما ذكرنا من المخلوقات، مثل قوله تعالى هنا: ليأكلوا من ثمره؛ وعلى هذا، الآية تشمل كل وسائل النقل الحديثة من سيارات وقطارات وطائرات. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَالْحَيْلَ وَالْإِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: 8). ودليل رحمته ولطفه تعالى حفظ الركاب في تلك الوسائط" (4).

ومن هنا نرى أن القرآن الكريم قد يدنو من المخاطب إلى حد أنه ينقل إليه بعض الحقائق الكونية من زاوية نظر المخاطب نفسه بالقدر الذي تدركه حواسه؛ إذ ينقل لنا الصورة من خلال إدراكاتنا، دون أن يوغل فيما أبعد من ذلك؛ ترقباً لتطور أدوات المعرفة البشرية، وفتحاً الباب الإشاري للاحتتمالات كلها. فنحن نؤمن بما تدركه حواسنا، وإن كان إدراكنا ناقصاً أو جزئياً أو مغلوطاً، وحتى لا نفقد الصلة بين دليل إدراكنا للحقيقة عبر حواسنا ومنطقنا الفكري وبين الحقيقة ذاتها- يلجأ النص القرآني الكريم إلى تمرير بعض الحقائق من زاوية رؤيتنا لها، حتى لا نحس بفجوة هائلة بين ما نعتبره حقائق مسلماً بها، وبين الأصل الموضوعي لتلك الحقائق، وأنا أتحدث هنا بلسان حال أهل القرون الأولى؛ فإنهم لو فاجأهم القرآن الكريم بهذه الحقائق المنافية لإدراكهم لاشتد نكيرهم؛ فصورة الحقيقة، كما تبدو لنا عبر إدراكنا، قد تختلف جذرياً عما هي عليه في واقعها. والله - سبحانه وتعالى - قدّر فينا فروق هذا التباين المعرفي بين الحقيقة المجردة وزاوية إدراكنا لها.

ومن هنا تجد القرآن الكريم يؤكد صراحةً حركة الشمس والقمر، وقد سماها (الجريان)، وهذه الحقيقة لا يستنكرها المتلقون القدامى؛ لأنهم يشاهدونها، أما دوران الأرض؛ فالقرآن الكريم يتلطف في تمرير الحقيقة، فأحياناً يحدثنا عن أن الجبال تسير بطريقة لا ندركها ونحسبها ثابتة. وأحياناً يُعبّر عن هذه الحقيقة بدوران الليل والنهار ويستخدم الفعل يسبحون، وهو متعلق بالشمس والقمر وبالليل والنهار. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (الأنبياء: 33). وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: 40). فإذا علمنا أن الشمس، وهي جسم يسبح في الفلك وكذلك القمر، فكيف يكون الليل والنهار سابحين في الفلك وهما ليسا جسمين؟ إن الليل والنهار هنا هما - وفقاً للبلاغة العربية - قد يكونان مجازاً مرسلًا علاقة (المُسَبَّبِيَّة) فهما ناتجان بسبب من حركة الأرض، وأن المقصود من ذكرهما ذكر الأرض عن طريق التلميح والإشارة. على أن المفسرين القدماء ومن تبعهم من المحدثين كابن عاشور - لم ينتبهوا إلى هذه الحقيقة، وقد تم توجيه دلالة الآية على النحو التالي: "وقيل: المراد من الليل والنهار آيتاهما وهما الشمس والقمر، فيكون عكس قوله: لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر؛ أي ولا القمر سابق الشمس، وإيراد السبق مكان الإدراك لسرعة سير القمر وهما نيران لا يزال أمرهما على هذا الترتيب إلى أن تقوم الساعة، فيجمع الله بين الشمس والقمر" (5). أما عن سباحة الليل والنهار؛ فقد نفاها بعض الأقدمين، كما أثبتتها بعضهم الآخر كابن كثير إذ يقول: "وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يعني الليل والنهار والشمس والقمر، كلهم يسبحون؛ أي يدورون في فلك السماء، قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراساني. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: في فلك بين السماء والأرض، ورواه ابن أبي حاتم، وهو غريب جداً بل منكر. قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغير واحد من السلف: في فلكة كفلكة المغزل" (6). في حين يرى ابن عاشور أن السباحة خاصة في هذه الآية بالقمر والشمس فقط، وذلك اعتماداً على ما يراه الإنسان بعينه. يقول ابن عاشور: "وجيء بضمير: يسبحون جمع مع أن المتقدم ذكره شيئان: هما: الشمس والقمر؛ لأن المراد إفادة تعميم هذا الحكم للشمس والقمر، وجميع الكواكب، وهي حقيقة علمية سبق بها القرآن الكريم" (7). مع أن إفادة

التعميم ليس لها قرينة؛ لأن السياق يقتضي أن تُذكر الكواكب أو يُشار إليها، فما تم ذكره هو الشمس والقمر المعروفان للناس وكذلك ذكر الليل والنهار. والخلاف هنا حول دلالة (كل) من حيث إذا كانت تفيد استغراق المتقدم؛ أي كل المذكور سابقاً، أو أنها تفيد المذكور سابقاً ونظائره الأخرى. وأنا أعتقد أن السياق منحصر في الشمس والقمر والليل والنهار فقط؛ فسياق الآيات السابق يدعم هذا بقوة: يقول الله تعالى: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٣٨ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ٤٠﴾ (يس: 37-40). وأعتقد أن تأويل عموم الكواكب متعذر في هذا السياق دون تعسف اشتماله عليها. ومن هنا فإن ثمة قرينتين لغويتين تؤكدان دلالة الجمع لا التثنية الخاصة بالشمس والقمر؛ مما يجعل سباحة الليل والنهار متضمنة، وهاتان القرينتان هما: الأولى هي واو الجماعة في الفعل (يسبحون)، ولو كان المخصوص اثنين (الشمس والقمر) لقال: يسبحان. والثانية: قوله تعالى (وكل في فلك) ولفظ كل يستغرق الجميع بلا استثناء، وقد استبعد ابن عاشور فكرة سباحة الليل والنهار واكتفى بسباحة الشمس والقمر وهما مثني، أما تركيب الجملة النحوي فجاء جمعاً (يسبحون)، مما يدل على اشتماله على الليل والنهار في السباحة. فصح لدينا أن النهار والليل من ضمن ما يسبح، وهما ناتجان بسبب من حركة الأرض، وقد اكتفى بذكر المسبب ليدل على المسبب. كأن تستبدل بهذه الجملة (كلما قمتُ إلى الصلاة شعرتُ بالراحة النفسية) قولك: (قمتُ للراحة النفسية) فتكون قد اكتفيت بذكر المُسبَّب ليدل على المُسبَّب. والذي يعيننا من هذه الإشارة العلمية هو إبراز الأسلوب القرآني الكريم الذي يكون متفقاً مع الأرضية المعرفية لكل جيل أولاً، ثم التذكير بأن القرآن الكريم لجأ لهذه الأساليب في تمرير الحقائق العلمية رحمةً وتلطفاً بالأجيال السابقة؛ لكي يجدوا مخرجاً عقلياً لربط تأويلهم مع إدراكهم الحسي.

ثانياً: أسلوب الدمج السياقي

يُقصد بهذا الأسلوب أن القرآن الكريم قد يقدم للمتلقي إشاراتٍ علميةً تعاكس ما يشاهده، ولكنه يعمد إلى جعل هذه الإشارة العلمية في سياق مختلف، لكي يجد المتلقي

من الأجيال مخرجاً في التأويل، ويكون هذا السياق مشابهاً لموضوع الإشارة العلمية. وتمرير المعلومة عبر سياقات مغايرة يمكن معها نفي الإخبار العلمي وحملها على أنها إخبار عن قضايا أخرى كإخبار عن علامات يوم القيامة، ويتم ذلك عبر إدماجها في سياق يمكن حملها عليه. وهنا قد يصلح المثال التالي، قال تعالى: ﴿الْمَرِيرُوا أَنَا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ (النمل: 86-88) والآية الأخيرة التي تحمل الرقم (88) هي المقصودة؛ إذ إننا لو تأملناها لوجدنا التالي: نحن نرى الجبال فيما يبدو أنها ثابتة، ولكن هذه الجبال تمرّ مرور السحاب، من جهة أن مرورها غير محسوس. إن حركة الجبال وحدها غير ممكنة؛ لأنها مغروسة في الأرض، وهنا يبرز الاستنتاج التالي: حركة الجبال هي تعبير عن حركة الأرض ككل، وهذا ما يُعرف في البلاغة العربية تحت مصطلح (المجاز المرسل لعلاقته الجزئية) إذ إنه ذكر الجزء وهو يريد الكل.

والعجيب في الأسلوب القرآني الكريم أنه جعل هذه الإشارة العلمية مدمجة في سياق الحديث عن يوم القيامة، هذا الحديث الذي يتضمن تلقائياً أن الجبال ستمر فيه بحالات التلاشي والزوال. وفي الآية قرائن تؤكد أن هذا المشهد ليس من مشاهد يوم القيامة؛ فقله (صنع الله الذي أتقن كل شيء) دليل على أن المشهد في الدنيا؛ ذلك أن تسيير الجبال يوم القيامة هو هدم للصناعة، وليس ثناءً على إتقانها، ثم إن الناس يوم القيامة سيرون الجبال تمر بمراحل التدمير دون أن يحسبوا ثابتة؛ لأنها لن تبدو لهم ثابتة، بل سيرونها تمر بمراحل زوالها المتتالية؛ فالجبال كما أخبرنا عنها الله - سبحانه وتعالى - في سياقات مختلفة بقوله: ﴿وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَا دَكَّةً وَحِدَةً﴾ (الحاقة: 14) وكذلك ورد ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ (الكهف: 47) هنالك الناس سيرون بروز الأرض وسير الجبال. ثم تمر الجبال، في حالة من انعدام الوزن؛ إذ تصبح كثافتها ضئيلة يمكن أن تطير مع الهواء كالصوف المنفوش ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ

أَلْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ (القارعة:5)، ثم تتلاشى كالسراب ﴿وَسُرَّتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ﴿٢٠﴾ (النبأ:20)، وهذه المشاهد ستمر يوم القيامة وهي جميعها نقض وهدم للصناعة الربانية، ولن يحسبها الإنسان ثابتة؛ لأنها ستسير أمام عينه، ولن يحسبوا أن الجبال جامدة؛ لأنها تسير أمامهم. وهذه الأدلة كافية لندرك أن مرور الجبال في قوله تعالى ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ هو في الدنيا، ولكن الأسلوب القرآني الكريم الراقى - الذي يراعي المستوى المعرفي لسلسلة المتلقين عبر التاريخ- جعل هذه الآية في سياق الحديث عن يوم القيامة، فظن الأقدمون أنها حديث مكرر عن حركة الجبال عند حدوث القيامة. وهذا الأسلوب يراعي عدم التناقض بين ما يراه الإنسان من جمود الجبال وبين حركتها شبه المخفية التي تحاكي مرور السحاب.

وبالعود إلى الآية فإننا سنقف عند مفهوم النسبية؛ فالجبال بالنسبة لنا جامدة، وهي في حقيقتها تسير. وثمة مثال تقريبي لذلك؛ فإننا إذا تصورنا سيارتين انطلقتا في الوقت نفسه والاتجاه نفسه والسرعة نفسها فإن الراكب في إحدهما إذا نظر إلى الراكب الموازي له في السيارة الأخرى يظنه جامداً لا يتحرك، وهكذا حركة الجبال مع الأرض. فالإنسان لا يشعر بحركة الجبال؛ لأنه هو يتحرك معها بالسرعة نفسها والاتجاه نفسه.

فالجبال من زاوية رؤيتنا لها تبدو ثابتة، وقد أخبرنا الله - سبحانه وتعالى - أن زاوية نظرنا ليست يقينية عبر استعمال الفعل (تحسبها) الذي يفيد خصوصية الرأي المبني على الزعم والظن، لكن الجبال من زاوية حقيقتها الموضوعية تمر مرور السحاب، وهنا (نسبية الإدراك). وقد اختار الله - سبحانه وتعالى - لهذه الآية سياقاً يمكن حملها معه على أنها من أهوال الساعة؛ حتى لا يتصدع يقين المؤمنين في الزمن القديم أمام حقيقة ما يراه جامداً مستقراً. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِيرِينَ﴾ ... ﴿٨٧﴾ ثم قال بعدها: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ فكيف تكون من أهوال الساعة ونحن نراها جامدة؟ وكيف تكون من أهوال الساعة وتذليل الآية ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؟ عند أهوال الساعة لا يكون أمام الناس خيار التأمل؛ لأنه يكون في حالة من الفزع.

إن السياق فيه تنوع من قبل ومن بعد، ولا يمكن الجزم بأن تفاصيل الآيات جميعاً تدور في فلك اليوم الآخر؛ لأنه بخلاف ما سيحصل يوم القيامة، فإن الجبال تنفصل عن الأرض وتنفذ نسفاً، فكيف أعتقد أنا أنها جامدة؟. إن الآية السابقة لمرور الجبال تفسر كيفية جعل الله - سبحانه وتعالى - الليل سكناً والنهار مبصراً، فهي تنمة لما قاله الله في الآية (86) التي يقول فيها: ﴿الْمَرِيرُوا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾. (النمل: 86). والآية (88) ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَأْتَنَّهُ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ (النمل: 88) أرتنا كيفية تعاقب الليل والنهار، وأن الله - تعالى - من رحمته أن أحكم سرعة دوران الأرض بحسبان متقن. ولو أقيمت نظرة على الآيات: 86، 87، 88، 89 قال تعالى: ﴿الْمَرِيرُوا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِيرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَأْتَنَّهُ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ من سورة النمل لوجدت أن الآية 88 مكملة للآية 86، ﴿الْمَرِيرُوا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾... وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ يَأْتَنَّهُ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ والآية 89 مكملة للآية 87. قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِيرِينَ ﴿٨٧﴾... مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ولا ننس أن الله تعالى ختم سورة النمل بقوله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ وَأَيْنِيهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (النمل: 93). ولا ننس أن الآية 86 تبدأ بقوله تعالى: ﴿الْمَرِيرُوا﴾؛ فهذه من الآيات التي يرينا إياها الله - سبحانه وتعالى. لقد بين الله - سبحانه وتعالى - لنا ذلك بأسلوب لطيف هو أسلوب (اللف والنشر)، وهو أسلوب بلاغي؛ إذ أتى بآية تتكلم عن الحياة الدنيا وعطف عليها آية تتكلم عن الحياة الآخرة، ثم أتى بعد ذلك بآيتين ترجع كل آية إلى الآية المتقدمة، وذلك على النحو التالي:

1- ﴿الْمَرِيرُوا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٧) والآية التي ترجع إليها: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (٨٨).

2- ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوِّهٍ دَاخِرِينَ﴾ (٨٧) والآية التي ترجع إليها: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّمَّا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (٨٨). وهذا باختصار هو فحوى الأسلوب الذي قصدناه (إدماج الإشارة العلمية في سياقات مغايرة لها تماماً في موضوعها لكنها ملائمة لها من جهة التشابه الشكلي). وفائدة هذا الأسلوب تكمن في رحمة الله -تعالى- بالقدماء الذين ستصدمهم الحقيقة العلمية.

وقد تحدث عدد من مفسري القرآن الكريم القدماء عن جوانب مضيئة في فهم هذه الآية؛ فقد قال الماوردي (المتوفى: 1058م): " (وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)؛ أي: لا يُرى سيرها لبعدها أطرافها، كما لا يُرى سير السحاب إذا انبسط لبعده أطرافه وهذا مثل " (8). وقد نقل القرطبي (المتوفى: 1273م) آراء عدد من المفسرين كما جاء في قوله: " قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَي قَائِمَةٌ وَهِيَ تَسِيرُ سَيْرًا حَثِيثًا. قَالَ الْقَتَبِيُّ: وَذَلِكَ أَنَّ الْجِبَالَ تُجْمَعُ وَتُسَيَّرُ، فَهِيَ فِي رُؤْيِيهِ الْعَيْنِ كَالْقَائِمَةِ وَهِيَ تَسِيرُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ عَظِيمٍ وَجَمْعٌ كَثِيرٌ يَقْصُرُ عَنْهُ النَّظَرُ، لِكَثْرَتِهِ وَبُعْدِ مَا بَيْنَ أَطْرَافِهِ، وَهُوَ فِي حُسْبَانِ النَّاطِرِ كَالْوَاقِفِ وَهُوَ يَسِيرٌ " (9). وقد ذكر ابن عاشور أن العطف في الآيات يحتمل معنى آخر كما جاء في قوله: وكأنهم لم يجعلوا عطف ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ على ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ (النمل: 87) حتى يتسلط عليه عمل لفظ يوم بل يجعلوه من عطف الجملة على الجملة، والواو لا تقتضي ترتيب المعطوف بها مع المعطوف عليه، فهو عطف عبرة على عبرة وإن كانت المذكورة أولى حاصلة ثانياً" (10).

إن الحقيقة الكبرى التي أوردتها هذه الآية هي ما يسميه العلماء اليوم بمبدأ (نسبية الحركة) الذي يفيد أن الشيء الذي يبدو للمراقب ساكناً قد لا يكون كذلك، بل قد يكون متحركاً، والشيء الذي يبدو أنه يتحرك بسرعة بطيئة قد تكون سرعته عالية جداً. وبغض النظر عن اختلاف علماء التفسير -فيما إذا كانت هذه الآية تتحدث عن ظاهرة يعايشها البشر في حياتهم الدنيا أم أنها من ظواهر يوم القيامة- فإن للآية الأسبقية في تقرير حقيقة

نسبية الحركة. فالآية تتحدث بكل وضوح عن ظاهرة عجيبة، وهي أن الناظر إلى الجبال تبدو له جامدةً وهي في حقيقتها تتحرك. فهي من زاوية رؤيتنا جامدة، وهي في زاوية حقيقتها الموضوعية تمر مر السحاب.

الفصل الثاني: مناقشة الأدلة والآيات المتنازع عليها - من خلال نسبية زاوية الرؤية

قبل الولوج إلى الآيات القرآنية الكريمة التي فهم منها فريق من الناس أن الأرض مسطحة وثابتة، وفهم فريق آخر أنها كروية وتدور - يجب التنبيه على دقائق التعبير القرآني الكريم؛ فأنت حين تقرأ آيةً عليك أن تبادر بسؤال مهم هو: أيسوق القرآن الكريم لي هذه الآية من زاوية نظري أنا أم من زاوية مطلقة؟ إننا نجد في سياق الآية صيغةً لغويةً تفيد أن هذا الخطاب الملقى هو من زاوية نظر المتلقي أو من زاوية ربانية. فعلى سبيل المثال: نجد قوله تعالى في الإخبار عن ذي القرنين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ (الكهف: 86). فمن الذي وجد الشمس تغرب في عين حمئة؟ إن هذه الآية تنقل لنا الخبر من زاوية نظر شخص هو (ذو القرنين). وقد أجد أنا أن الشمس تغرب في الجبل أو في البحر، فهذا الخبر لا نأخذ منه حقيقةً علميةً؛ لأن الشمس لا تغيب في عين حمئة دائماً. فذو القرنين هو الذي وجدها كذلك ورآها بعينه رؤيةً محصورةً بالنقطة التي كان يقف فيها، فهي نسبية وليست حقيقةً مطلقةً. والقرآن الكريم نقل لنا ما رآه ساعة أن وجد قوماً هنالك. غير أن القرآن الكريم عندما يريد أن يقر حقيقةً كونيةً لا يستخدم القرآن الكريم الطلوع أو الغروب بل يستخدم كلمة (تجري)؛ لأن الشمس موجودة على الدوام في الكون، ولا تختفي، وهي تجري ضمن المجرة جرياناً حقيقياً. يقول تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ (يس: 38).

ومن هنا فإن ثمة مواضع يصلح فيها إعادة الخطاب بناءً على زاوية الرؤية تجنباً لوهم التعارض - حاشاه - في النص المقدس. وخير مثال على هذا الموضوع هو ما يدور في أدلة القائلين بكروية الأرض والقائلين بتسطحها. ولو نظرنا في أدلة الطرفين لوقعنا في إشكال تفسيري؛ فعدد غير قليل من آيات القرآن الكريم ذكرت لنا تصورات عن الأرض، وهذه التصورات قد يحملها الناس على وجوه مختلفة من التأويل، فقد تُحمل على أنها

دليل على كروية الأرض، وقد تُحمل على أنها دليل على تسطحها، إذا أغفلنا زاوية النظر النسبية للخطاب. وهذه الأدلة هي:

أولاً: أدلة التسطح

قال تعالى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: 20) وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 22). وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ (النبا: 6) وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ (النازعات: 30) وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: 3) وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (الحجر: 19) وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ بَهِيمٍ﴾ (ق: 7). وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ (نوح: 19). وقال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا﴾ (الشمس: 6). وعند النظر في هذه الآيات يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى

وهي تخص قوله تعالى: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: 20). وفي البدء يجب التنبيه على أن كلمة (الأرض) في القرآن الكريم لا يُراد بها الكرة الأرضية دائماً؛ فأحياناً تُطلق على مكان محصور، ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (القصص: 4) أو على دولة، أو مدينة تبعاً لسياقها ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ (النساء: 97). ومن أمثلة ذلك: ﴿أَقْبَلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ (يوسف: 9). وقوله تعالى: ﴿إِنْ تُرِيدُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُونَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (القصص: 19).

وبالعودة إلى الآية الكريمة: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: 20) فإن سياقها العام موجّه إلى التأمل في خلق الله - سبحانه وتعالى - من زاوية نظر بشرية، وقد

انحصرت هذه الزاوية في صيغة لغوية هي قوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾، وأول مشهد مطالب به الإنسان هو التأمل في خلق الإبل، وهذا يقتضي أن يكون نظر الإنسان أفقياً، ثم يليه التأمل في السماء من زاوية أرضية وهذا يقتضي أن تكون زاوية الرؤية عمودية ذاهبةً إلى الأعلى، ثم يليه التأمل في الجبال، وهذا يقتضي أن تكون زاوية النظر أفقيةً مائلةً إلى الأعلى، وفي الأخير المطالبة بالتأمل في سطح الأرض، وزاوية النظر هنا أفقية مائلة إلى الأسفل. ولو تابعنا زوايا النظر لوجدناها كلها نسبيةً محصورةً في الإنسان على سطح الأرض. فإن الواقف على سطح الأرض لن يرى أبعد من بضعة أميال، ولن يجد -على العموم- إلا سطحاً ممتداً، ولا يستطيع -بناءً على المسافة بينه وبين الجسم الضخم- أن يحدد أبعاده إلا أن يبتعد عنه مسافات هائلةً.

وبالعودة إلى معنى الفعل (سُطِحت) فإنه يدل على أنه قد جُعل لها سطح، وفي هذا يقول ابن عاشور: "ومعنى سطحت: يقال سطح الشيء إذا سواه ومنه سطح الدار. والمراد بالأرض أرض كل قوم لا مجموع الكرة الأرضية" (11). ولو كانت الآية تُحدثنا عن حقيقة الأرض من جهة كونها مسطحةً وليست كرويةً لجاز لنا أن نتساءل هذا التساؤل: هل يستطيع الإنسان الواقف على سطح الأرض أن يدرك حقيقة تسطحها الكلي ببصره؟ إن الآية تحدثنا من زاوية نظرنا النسبية (أفلا ينظرون)؟ إن هذه مغالطة بحد ذاتها، إن الآية تذهب بنا نسبياً مع مدى بصر الإنسان فقط.

المجموعة الثانية

هذه المجموعة تخص الآيات التالية: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ ﴿وَالَّذِي مَدَدْنَاهَا﴾ ﴿وَالَّذِي مَدَدْنَاهَا﴾ ﴿وَالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾. والناظر في هذه الآيات لا يجد دليلاً حاسماً على أحد الرأيين السابقين؛ فكون الأرض كرويةً لا يمنع أن يكون سطحها ممدوداً أو مفروشاً أو مههداً. وكذلك الحال لو كانت الأرض مسطحةً. إن الحديث في الآيات السابقة هو حديث عن القشرة الخارجية للأرض، وكيف أن الله -سبحانه وتعالى- جعلها تبدو مهيدةً مبسوطةً مفروشة لتسهيل معاش الإنسان فيها من خلال تنقله وعمله في الزراعة وغير ذلك. إن

سياقات الآيات السابقة جميعها ليست سياقات إخبار علمي؛ فالإنسان يعرف أن سطح الأرض ممتد وممهّد أو مفروش، إن السياق هنا هو سياق امتنان، فالله يريد توجيه بوصلة الكافر به إلى معرفة الذي جعل الأرض على هذه الهيئة من التسهيل، وهذا فارق دقيق في النظرة إلى النص، فسياق الآية الأولى فيه تعليل لجعل الأرض تبدو كالفرش وهذا التعليل هو: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 22) والمراد به إخراج النبات، وإلى هذا الحد لا ينكر الناس هذه الحقيقة، لكنهم قد ينكرون أن يكون الله - سبحانه وتعالى - هو الذي فعل ذلك، لذا جعل ختام الآية ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾. إذن، سياق الآية ليس إخباراً علمياً بل هو امتنان؛ ليؤمن الناس أن الله - سبحانه وتعالى - هو الفاعل. أما الآية الثانية ﴿الَّذِي جَعَلَ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾؛ فهي على المنوال نفسه؛ أي ليست إخباراً علمياً، بل مطالبة للإنسان بالإقرار والاعتراف بأن فاعل هذه الأشياء هو الله، سبحانه وتعالى. وجميع الأشياء المذكورة لا ينكرها الناس بالجملة، لكنهم قد ينكرون أن الله - سبحانه وتعالى - هو موجدتها.

لنعد النظر في الآيات: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ (٧) ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ (٨) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ (٩) ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (١٠) ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (١١) ﴿وَبَيَّنَّا فَوْقَكُمُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ (١٢) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾ (١٣) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ (١٤) ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ (١٥) ﴿وَجَعَلْنَا أَلْفَافًا﴾ (١٦) (النبا: 6-16). وصيغة الاستفهام بالهمزة (ألم) ليست لطلب الإجابة، بل هي لطلب الإقرار والاعتراف، وغاية جعل الأرض مهاداً هو إخراج النبات الذي يضمن بقاء الإنسان على الأرض.

وتندرج باقي الآيات السابقة في المسار نفسه، فالآيات التي تتحدث عن (مد الأرض) ورفع الجبال وتنوع الثمرات هي ليست إخباراً علمياً، بل هي امتنان يُقصد منه معرفة الفاعل؛ لأن كل المذكورات أشياء معروفة عند المتلقي. يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: 3)، ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْبَتْنَا

فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ (الحجر: 19). ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ (ق:7). وكل حديث عن مد الأرض اقتضى بعده حديثاً عن الجبال وعن تنوع الأزواج النباتية؛ مما يعطي حقيقة أن الحديث هنا عن قشرة الأرض الخارجية المشاهدة للإنسان، وهو ليس حديثاً علمياً يخبر الإنسان بشيء لا يعلمه، لكن الله - سبحانه وتعالى - أراد من الإنسان أن يعلم حقيقة الفاعل.

وقد تَبَقَّى من الآيات اثنتان هما قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّهَا ﴿٦﴾﴾ (الشمس:6)، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾ (النازعات: 30). وقد اختلف أهل التفسير في معنى الفعلين (دحا) و(طحا). أما المعنى الشائع في كتب اللغة للفعل (دحا) فهو التوسع والبسط، قال الجوهري: "دحا: دحوت الشيء دحواً: بسطته" (12). وهي بهذا المعنى تلتحق بما تقدمها من دلالة: المد، البسط، التمهيد، الفراش، ثم الدحو؛ لأن من معانيه إصاق الشيء بالأرض، ففي المعاجم: "دَحَّ الشَّيْءُ يَدُحُّهُ دَحًّا: وَضَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ دَسَّهُ حَتَّى لَزِقَ" (13). ومن جهة أخرى تفيد معاجم اللغة أن من معاني الفعل (دحا) واستعمالاته ما يفيد دلالة (الامتلاء والاستدارة). كما جاء مثلاً في معجم تاج العروس، إذ يقول: "أَنْدَحَّتْ خَوَاصِرُ الْمَاشِيَةِ أَنْدَحَاحًا، إِذَا تَفَتَّقَتْ مِنْ أَكْلِ الْبَقْلِ. وَدَحَّ الطَّعَامُ بَطْنَهُ يَدُحُّهُ، إِذَا مَلَأَهُ حَتَّى يَسْتَرْسِلَ إِلَى أَسْفَلٍ... وَقَالَ اللَّيْثُ: الدَّحْدَاحُ وَالدَّحْدَاحَةُ مِنَ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ: الْمُسْتَدِيرُ الْمُكَلَّمُ" (14). وجاء في تكملة المعاجم العربية: "ودحا: عجن، وجبل. أدحو: وردت في المعجم اللاتيني العربي مقابل mergo, demergo (15)".

أما الفعل (طحا) فقد ذهبت كثير من كتب التراث إلى أنه بمعنى (دحا) وأنه لغة (لهجة خاصة بإحدى القبائل) تلفظ الفعل (دحا) (طحا)، قال الجوهري: " (طحا) طحوته مثل دحوته؛ أي بسطته" (16). ومن معاني هذا الفعل كما أفادت المعاجم (ابتعاد مدى الشيء) و(الامتداد والاستدارة): "قال الليث: الطَّحُو كالدَّحُو، وهو البَسْطُ. وفيه لغتان طحا يَطْحُو وَطَحًا يَطْحَى... سألت أبا الدقيش عن قوله: المُدْمُومَةُ الطَّوَّاحِي، فقال: هي السُّورُ تُسْتَدِيرُ حَوَالِي الْقَتِيلِ. قال: وطحا بك همك أي ذهب بك في مذهب بعيد" (17).

إن الفعلين (دحا) و(طحا) يفيدان معنى البسط، كما يفيدان معنى الاستدارة والامتلاء، وهما ليسا دليلين على أن الأرض غير كروية؛ لأنهما متعلقان بوجه الأرض (القشرة)، فالسياق يتحدث عن امتنان الله - سبحانه وتعالى - عليهم بنعمة انبساط ظاهر الأرض وإخراج الماء والنبات منها (أخرج منها ماءها ومرعاها). وهما لا ينهضان كدليلين على تسطح الأرض أو كرويتها.

بقي أن نشير إلى أن زاوية النظر بالنسبة لاستعمال الفعلين السابقين هي زاوية أرضية من جهة المتلقي (الإنسان). كما أن توالي الأفعال: مَهَّد، مَدَّ، بسط، فرش، دحا، طحا، توحى لنا بصورة أن الأرض كانت سطحاً صلباً يشبه بلاط الأرضيات، وقد جرى عليها عمل إلباسها بقشرة تعين على الحياة. كما تفرش الغرف بالسجاد ونحوه. فبدأت العملية بالتمهيد ثم المد ثم البسط ثم الفرش ثم الدحو والطحو. قال البيضاوي: " ومعنى جعلها فراشاً: أن جعل بعض جوانبها بارزاً ظاهراً عن الماء، مع ما في طبعه من الإحاطة بها، وصيرها متوسطة بين الصلابة واللطافة حتى صارت مهياً لأن يقعدوا ويناموا عليها كالفرش المبسوط، وذلك لا يستدعي كونها مسطحة؛ لأن كروية شكلها مع عظم حجمها لا يأبى الافتراض عليها" (18).

إن مد الأرض وجعلها تبدو ممتدة لا حَوَافَ لها لهو دليل أيضاً على كرويتها؛ فإنها لو لم تكن كروية لكان لها حواف ينتهي إليها السائر فيسقط في الفراغ، فالامتداد اللامتناهي دليل على الكروية. وهذه الآية تستعمل كدليل على تسطيح الأرض ولكنها دليل على الكروية، فالمد والامتداد يعني الانبساط غير المتناهي. كما تعني انبساط سطحها الضخم بما يبدو للناظر فيه أنها سطح مستو. ولو تغيرت زاوية المكان بالنسبة لخطابنا لتغيرت الصيغة اللغوية للآية. فمثلاً يقول الله تعالى: ﴿يَمَعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الرحمن: 33). فزاوية الرؤية هنا قائمة على الخروج من نطاق الأرض وفضاءها القريب؛ لذلك استعمل المفردة (أقطار) وهي جمع قطر، الدال على الدائرة أو الكرة. وقد تنبّه الشهاب إلى معنى قريب من هذا في قوله: "الأكثر في الآيات إذا ذُكر فيها الدلائل الموجودة في العالم السفلي أن يجعل مقطعها (خاتمها) إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (19).

ثانياً: أدلة التلويد

ثمة دليل حاسم من القرآن الكريم على كروية الأرض، وقد استعمل فيه القرآن الكريم أسلوب (التمرير المعرفي)؛ أي أنه استعمل الفعل (كَوَّر) الدال على الكروية في تعبيره عن حركة الليل والنهار. وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ﴿٥٥﴾ (الزمر: 5). وأول ما يجب التنبيه إليه هو زاوية الرؤية، فالزاوية هنا ربانية، إذ لا يوجد في الآية أية صيغة لغوية تشير إلى الإنسان. كما أن هذه الحقيقة العلمية لا يعرفها الإنسان أبداً؛ لأن زاوية الرؤية البشرية لا تستطيع إدراك كروية تعاقب الليل والنهار، وهذه الحقيقة لم يرها الإنسان بعينه إلا بعد صور الأقمار الصناعية، لكن عدداً من مفسري القرآن الكريم أدركوا حقيقة كروية الأرض من هذه الآية؛ فقد ذهب كثير من العلماء المسلمين في القديم إلى القول بكرويتها كالبيضاوي. والرازي إذ يقول: "اعلم أن هذا القول إنما يتم إذا قلنا الأرض مسطحة لا كرة وأصحاب هذا القول احتجوا عليه بقوله: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾ (التازعات: 30). وهذا القول مشكل من وجهين، الأول: أنه ثبت بالدلائل أن الأرض كرة فكيف يمكن المكابرة فيه؟ فإن قالوا: وقوله: مد الأرض ينافي كونها كرة فكيف يمكن مدّها؟ قلنا: لا نسلم أن الأرض جسم عظيم والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشهد كالسطح، والتفاوت الحاصل بينه وبين السطح لا يحصل إلا في علم الله " (20). وكأبي السعود والآلوسي في تفاسيرهما المشهورة، وأما كونها مسطحة أو ممدودة أو مبسوطة، فإنما هي بالنسبة لعظمها وسمتها أو بالنسبة للناظرين إليها، فليس في القرآن الكريم ما يخالف الحقائق العلمية حول صورة الأرض الكروية. يقول أبو حيان الأندلسي: "والفرش، والمهاد، والبساط، والقرار، والوطاء نظائر. وقد استدل بعض المنجمين بقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا﴾ (البقرة: 22) على أن الأرض مبسوطة لا كروية، وبأنها لو كانت كروية ما استقر ماء البحار فيها. أما استدلاله بالآية فلا حجة له في ذلك؛ لأن الآية لا تدل على أن الأرض مسطحة ولا كروية، إنما دلت على أن الناس يفتشونها كما يتقبلون بالمفارش، سواء كانت على شكل السطح أو على شكل الكرة، وأمكن الافتراض فيها لتباعد أقطارها

واتساع جرمها" (21). ومن هنا ندرك أن الأوائل قدّروا، بناءً على استدلالهم بالآيات، أن الأرض كروية، كما قدّروا - أحياناً - أن بعض الخطابات الخاصة بمد الأرض وبسطها لا تصلح أن تكون دليلاً على تسطح الأرض.

خاتمة

تحدثت الدراسة عن ظاهرة دقيقة في الخطاب القرآني الكريم، وهي: نسبية زاوية الرؤية، وهذه الظاهرة الأسلوبية يمكنها أن تحسم الجدل في العديد من القضايا التي تحدث عنها القرآن الكريم، ومن بينها كروية الأرض وحركتها؛ إذ إن الأدلة القرآنية الكريمة لو لم تأخذ عبر هذه الزاوية لوقع فيها تأييد للنقيضين. ويمكن إجمال النتائج العامة التي خلصت إليها الدراسة بما يلي:

- 1 - بينت الدراسة أن النظر في النصوص - دون العناية الدقيقة بالصيغة اللغوية التي تحدد زاوية الرؤية - يُفقد الحقيقة جانباً مهماً من حضورها.
- 2 - بينت الدراسة أن القرآن الكريم استعمل أساليب في طرحه للحقائق والإشارات العملية، ومن بينها: أسلوباً الترفي المعرفي والدمج السياقي. وهما دقيقان وحساسان للغاية. ولم يسبق لأحد - في حدود معرفتنا - أن تحدث عنهما.
- 3 - بينت الدراسة أن جميع الأدلة التي اعتمد عليها منكرو كروية الأرض افتقدت إلى لواحق سياقية حاسمة من شأنها قلب الأدلة، كما أنها تصلح أن تكون أدلة على كروية الأرض، إذا ما فعلنا دور السياق، وزاوية الرؤية النسبية.
- 4 - بينت الدراسة أن المناهج التي تعطي السياق أولية في تحليلها للخطاب تكون نتائجها أكثر منطقية.
- 5 - أظهرت الدراسة أن التعامل مع الآيات الكونية في القرآن الكريم يحتاج إلى عناية خاصة خارج الأحكام المسبقة.
- 6 - أظهرت الدراسة أن القرآن الكريم ينسجم مع أحدث النظريات العلمية فيما يخص القضايا الكونية.

7 - أظهرت الدراسة أن القرآن الكريم يحتاج إلى معرفة مسبقة بفنون البلاغة العربية وبالنحو العربي قبل إصدار الأحكام.

المراجع والمراجع

- (1) التويجري، حمود بن عبد الله: الصواعق الشديدة على أتباع الهيئة الجديدة، ط1، 1388.
- (2) العرجون: غصن في النخلة يكون حاملاً لقطوف الثمار.
- (3) الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن الكريم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ج20، ط1، بيروت: مؤسسة الرسالة، 2000، ص524.
- (4) الزحيلي، وهبة بن مصطفى: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، ج23، ط2، دمشق: دار الفكر المعاصر، 1418 هـ، ص18.
- (5) القنوجي، صديق خان: فتح البيان في مقاصد القرآن الكريم، مراجعة: عبدالله الأنصاري، ج11، بيروت: المكتبة العصرية، 1992، ص297.
- (6) القرشي الدمشقي، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمود حسن، ج3، الطبعة الجديدة، بيروت: دار الفكر، 1414 هـ - 1994 م، ص691.
- (7) ابن عاشور، محمد بن الطاهر: التحرير والتنوير، ج22، ط1، بيروت: مؤسسة التاريخ العربي، 2000 م، ص236.
- (8) الماوردي، علي بن محمد البصري: النكت والعيون (تفسير الماوردي)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود، ج4، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2012 م، ص230.
- (9) القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن الكريم، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ج13، ط2، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1964 م، ص242.
- (10) ابن عاشور، محمد بن الطاهر: التحرير والتنوير، ج19، تونس: الدار التونسية للنشر، ص318.
- (11) ابن عاشور، محمد بن الطاهر: التحرير والتنوير، ج30، ص271.
- (12) الجوهري، إسماعيل بن حماد: تاج اللغة وصحاح العربية، ج7، ط4، بيروت: دار العلم للملايين، 1990، ص184.
- (13) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي: المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، ج2، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000 م، ص509.
- (14) الحسيني الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، ج6، الكويت: دار الهداية، (دت)، ص361.
- (15) دوزي، رينهارت بيتر آن: تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية: محمد سليم النعيمي وجمال الخياط، ج4، ط1، العراق: وزارة الثقافة والإعلام، من 1979 - 2000 م، ص299.
- (16) تاج اللغة وصحاح العربية، ج7، ص261.
- (17) الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ج5، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2001، ص118.

- (18) البيضاوي، عبد الله بن عمر الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: عبد القادر العشا، ج1، ط1، بيروت: دار الفكر، 1416هـ، ص55.
- (19) الخفاجي، شهاب الدين المصري: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ج5، الطبعة الخديوية، بيروت: دار صادر، 1283هـ، ص218.
- (20) الرازي، فخر الدين محمد بن عمر: مفاتيح الغيب من القرآن الكريم، ج19، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000م، ص5.
- (21) أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف: تفسير البحر المحيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ج1، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م، ص77.

المراجعة بالحروف اللاتينية

References in Roman Script

- (1) Al-twaayḡr, ḥāmawd bin 'bdūllāh: alsawa'iq alšadidat 'ala atbā' alhayat alḡadida, ṭ1, 1388.
- (2) Altabary, muḥamad bin ḡaryr: ḡami' albayân fi tāwyl alquran, taḥqiq: aḥmad muḥamad šakir, ṭ1, bayrūt: muāsatat aresalat, 1420-2000.
- (3) Alzaḥlyyy, waḥbat bin mustafā: altafsīr almunīr fī al'qīdat walšarī'at walmanḥaḡ, ṭ2, dimašq: dār alfikr almu'ašir, 1418.
- (4) Ālfnwḡy, ḥan sidiyq: ftḥ albayân fī maqāšid alqurân, muraḡa't: 'bdūllāh alanšarī, bayrūt: almaktbt al'srīyat, 1412 - 1992.
- (5) Ābn ktīr ālqršy āldmšqī: tfasīr alqurân ālkarīm, taḥqiq: mḥmwd ḥsn, bayrūt: dār ālfr, ṭ ālḡdīda, 1414h- 1994m.
- (6) Ibn āšūr, muḥamad bin alṭaḥr: altaḥrīr wāltanwīr, ṭ1, bayrūt: muāsatat altārīḥ al'arabī, 1420-2000.
- (7) Almawrdī, ābū alḥasan 'lī bin muḥamad bin ḥabīb albašrī: alnukt wa al'uyūn (tfasīr almawrdī), taḥqiq: alsayyid bin 'abd almaqšūd bin 'abd alrahīm bayrūt: dār alktub al'ilmīyat.
- (8) Alqurtubī, alḡami' le aḥkām alqurân, taḥqiq: aḥmad albardūnī wa ibrahīm atfīš, ṭ2, alqāḥirat: dār alktub almašriyat, 1384-1964.
- (9) Aalḡawḥarī, isma'īl bin ḥamād, alšḥāḥ: tāḡ alluḡat wa šaḥaḥ al'arabiyat, ṭ1, bayrūt: dār al'ilm lilmalayīn, 1990.
- (10) Ibn sīdah, ābū alḥasan 'alī bin isma'īl almarṣī: almaḥkam wal muḥīt al a'zam, taḥqiq: 'abd alḥamīd hindāwī, ṭ1, bayrūt: dār alktub al'ilmīyat, 2000.
- (11) Alzubydī, ābū alfayḍ muḥmamd bin muḥmamd bin 'abd alrazāq alḥusaynī: tāj al'rus min ḡawāḥir alqāmūs, taḥqiq: majmu'at min almuḥaqqiqīn, alnāšir dār alhdāya.
- (12) Rinhāt bītīr ān duzī: takmilat alma'īgm al'arabiyat, naqlah ila al'arabiyat: muḥmamad salīm aln'aymī, ḡamāl alḥyāt, ṭ1, alḡumhuriat al'irāqiata: wizārat alṭaqāfat wal i'lām, 1979-2000.

- (13) Alazharī, ābū manṣūr muḥammad bin aḥmad: taḥdhib alluġat, taḥqīq: muḥammad 'ciwad marcab, 1, bayrūt: dār iḥy alturaṭ al'arabī, 2001.
- (14) Albayḍawī, nāsir aldīn, 'bdūllāh bin cumar alšīrazī: anwār altanzīl wa asrār altāwīl, taḥqīq: abd alqadir alcša, bayrūt: dār alfikr, 1416.
- (15) Alḥfaġī, šihāb aldīn almaṣrī: hašiyat alšihab 'ala tfsīr albayḍawī, bayrūt: dār sâdir.
- (16) Ābū ḥyian alandlusī: tafsīr albaḥr almuḥīṭ, taḥqīq: 'adil aḥmad 'abd almawġūd wa āḥarīn, 1, bayrūt: dār alkitub al'ilmīat, 1422 – 2001.
- (17) Alrazī, faḥr aldīn muḥammad bin 'umar bin alḥusayn: mafâtiḥ alġayb min alqurân alkarīm, dār iḥy alturaṭ al'arabī.
-